﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٩٩﴾ [يونس: 99]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرَّبط بين هلاك الكفرة الأوّلين والآخرين، وأنَّه لا هداية إلّا بمشيئة الله

لمّا كان ما مضى رُبَّما أوجب اعتقاد أنَّ إيمان مثل أولئك محال؛ جاءت هذه الآية في مقام الاحتراس منه مع البيان؛ لأنَّ حرصَ الرَّسول ﷺ على إيمانهم لا ينفع، ومبالغته في إزالة الشُّبهات وتقرير الدَّلائل، لا تُفيد إلّا بمشيئة الله تعالى لتوفيقهم وهدايتهم، ولو كان ذلك وحده كافيًا؛ لآمنوا بهذه السّورة؛ فإنَّها أزالت شبهاتهم، وبيَّنتْ ضلالاتهم، وحقَّقتْ بقصَّتَي نوح وموسى عليهما السلام ضعفَهم، ووهنَ مدافعاتهم[1]؛ فهذه الآية تذييل لما تقدَّم من مشابهة حال قريش مع النبيِّ ﷺ بحالِ قوم نوح وقوم موسى وقوم يونس[2]. وأيضًا لَوْ ﴿شَآءَ رَبُّكَ﴾؛ لأراهم علامة ليضطَّروا إلى الإيمان، كما فعل بقوم يونس، ولكن لم يفعل ذلك؛ لأنَّ الدُّنيا دارُ ابتلاءٍ[3].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿شَآءَ﴾: شاء زيدٌ الأمرَ يشاؤه شيئًا، من باب نال بمعنى أراده، والمشيئة اسم منه بالهمز والإدغام غير سائغ إلّا على قياس من يحمل الأصليَّ على الزّائد، لكنَّه غيرُ منقول[4]، والمَشِيئَةُ: الإرادَةُ والقَصْدُ، يقال: شاءَ الرَّجُلُ، يشاءُ، شَيْئًا ومَشيئَةً ومَشاءَةً، فهو شاء، أي: أرادَهُ وقَصَدَهُ[5]. والمَشيءُ: المُرادُ الذي يَتَعَلَّقُ به القصد، وأصْلُ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/209.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/292.
(3) السَّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/134.
(4) الفيّوميُّ، المصباح المنير: 1/330.
(5) ابن منظور، لسان العرب: (شيء).

المَشيئَةِ: الإيجادُ، مَأْخوذَة من الشَّيْءِ، وهو: كُلُّ موجود إمّا حسًّا أو معنًى[1]. والمقصود بالمشيئة في الآية: إرادةٌ إلى اتِّخاذ الشَّيء.

2) ﴿جَمِيعًا﴾: أصلُ (جَمَعَ) يدلُّ على تضامٍّ الشَّيءِ، يُقالُ: جمعتُ الشَّيء جمعًا[2]، ويُقال للمَجموع: جمْعٌ وجميعٌ وجماعةٌ، وجميعٌ وأجْمَعُ وأجْمَعُونَ تُستعمل لتأكيد الاجتماع على الأمر، فأمّا أجمعون؛ فتُوصف به المعرفة، ولا يصحُّ نصبه على الحال، نحو قوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [الحجر: 30]، وأمَّا جميع؛ فإنَّه قد ينصب على الحال، فيؤكَّد به من حيث المعنى، نحو: ﴿ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [البقرة: 38][3]. والمقصود بـ ﴿جَمِيعًا﴾ في الآية: تأكيد لزيادَة رَفْعِ احتمال العُمومِ العُرْفِيّ دونَ الحقيقيّ[4].

3) ﴿تُكْرِهُ﴾: أصل الكلمة من الكُرْه، وهو: البغضُ، وخلافه: الرِّضا والمحَبَّة، وهو حمْلُ الآخرِ على ما يكره، تقول: أكرهتُ فلانًا إكراهًا؛ إذا حملتَه على أمر يكرهه، يقال: كرهتُ الشَّيءَ أكرهه كُرهًا، ويأْتي بمعنى: الإلْزام، يُقال: أكْرَهْتُهُ على الشيء، أي: ألزمْتُه به، والكَراهة من الكُرْهِ أو الكَرْهِ، وهو المَشَقَّةُ والشدَّةُ، يقالُ: قُمْتُ على كُرْهٍ، أي: على مشقَّةٍ[5]، وقال الفرّاء: الكُره بالضَّمِّ: المشقَّة، يقال: قمتُ على كُره، أي: على مشقَّة، قال: ويقال: أقامني فلانٌ على كَره بالفتح، إذا أكرهك عليه؛ قال: وكان الكسائيُّ يقول: الكُره والكَره لغتان، وأكرهته على كذا: حملْتُه عليه كرهًا، وكرَّهتُ إليه الشَّيءَ تكريهًا: نقيض حبَّبْتُه إليه[6]، والمكاره: الشَّدائد، والمكروه: ما يكرهه الإنسان ويشقُّ عليه[7]، ومنه سمّي ما نفَّر عنه الشَّرع والطَّبع مكروهًا؛ لأنَّ الطَّبع والشَّرع لا ينفِّران إلّا عن شدَّة ومشقَّة تلحق بالمكلَّف[8]، والمقصود بالإكراه في الآية: الإلجاءُ والقسر[9].

(1) الرّاغب، المفردات: (شيء).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جمع).
(3) الرّاغب، المفردات: (كره)، والطيبي، فتوح الغيب: 11/159.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/192.
(5) ابن منظور، لسان العرب: (كره).
(6) الجوهريّ، الصّحاح تاج اللّغة وصحاح العربيّة: (كره).
(7) ابن الأثير، النِّهاية: (كره)، وابن منظور، لسان العرب: (كره).
(8) عبد الكريم النَّملة، المُهذَّب في علم أصول الفقه المقارن: 1/283.
(9) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/294.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

مِـن مُـقـتـضى إرادة الله تعالى أن يُـؤمِـن مـنِ اهـتـدى، ويكفر من أبى

يُخبر الله تعالى نبيَّه ﷺ بقوله: ولو شاء ربُّك - يا محمد ﷺ - لأَلْهَمَ كلَّ من في الأرضِ الإيمانَ، فآمنوا بالله، وبما جِئتَ به، لكنَّه لم يشأْ ذلك؛ لمُخالفته مقتضَى حِكمتِه سُبحانَه، أفأنت - يا محمد ﷺ - تُلزِمُ النّاسَ، وتضطرُّهم إلى الإيمانِ، حتّى يكونوا مؤمنينَ بما جئتَهم به؟ ليس ذلك إليك، ولا قُدرةَ لك عليه، بل الله تعالى هو من يَهدي، ويُضِلُّ مَن يشاءُ مِن عباده، لا بإكراهك لهم على ذلك[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ (الواو):

تسليَـةُ النَّـبيِّ الأكـرم وطمأنة قلبه، جـرّاء ما لـقيه مـن أذى قومه

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ عطفٌ على جملة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: 96]، لتسلية النَّبيِّ ﷺ على ما لقيه من قومه، وهذه الجُملة كالمقدِّمة الكليَّة للجملة التي بعدها، وهي جملة: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ﴾ المفرَّعة على الجملة الأولى، وهي المقصود من التَّسلية[2]، فالمتبادر أنَّها جاءت مُعقِّبة على الفصول السَّابقة الَّتي حكت أقوال الكفَّار ومواقفهم وحجاجهم، ثُمَّ على الفصول القصصيَّة التَّذكيريَّة والتَّمثيليَّة التي أعقبتها بقصد تسليَةِ النَّبيِّ ﷺ، وإدخال الطُّمأنينة على قلبه، وتخفيف حُزنه[3]، وذلك أنَّه كان حريصًا على أن يُؤمن جميعُ النَّاس، فأخبره الله جلَّ ذِكْرُهُ: أنَّه لا يؤمن إلّا من سبق له السَّعادة، ولا يَضِلُّ إلّا من سبق له مِنَ الله الشَّقاوة[4].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/299، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/298، والسَّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 374.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/292.

(3) محمَّد عزَّة دروزة، التَّفسير الحديث: 3/497.

(4) البغوي، معالم التَّنزيل: 2/436.

دلالة (لو) غير الجازمة:

بـيـانُ اقـتـضـاء حـكـمـة الـلـه في عـــدم تـــواطـــؤ الـــنّـــاس عـلـى الإيمان

(لو) في قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ تقتضي انتفاء جَوابها لانتفاء شرطها، فالمعنى: لكنَّه لم يشأ ذلك، فاقتضت حكمته أن خلق عقول النّاس متأثِّرةً ومنفعلة، بمؤثِّرات التَّفاوت في إدراك الحقائق، فلم يتواطؤوا على الإيمان، فما كان لنفس أن تُؤمن إلَّا إذا استكملت خِلْقَةَ عَقْلِها بما يهيئها للنَّظر الصَّحيح، وحُسْنِ الوعي لدعوة الخير ومُغالبة الهوى في الاعتراف بالحقِّ[1]، ولكن اقتضت حكمته أن يخلقَهم هكذا، يوازنون باختيارهم بين الإيمان والكفر، فيؤمن بعضٌ، ويكفر آخرون[2]، "فشاء أن يؤمن به من علم منه أنَّه لا يختار الكفر، وألّا يؤمن به من علم منه أنَّه لا يؤمن به تكميلًا لحكم القبضتين، وتحصيلًا لأهل النَّشأتين، وجعل الكلَّ مستعدًّا ليصحَّ التَّكليف عليهم"[3].

سِرُّ حذف مفعول المشيئة:

حـذْفُ المفعول مـــن بـلاغـة الـبـيـان؛ لكونه مضمونَ الجزاءِ

مفعولُ المشيئة في قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ﴾ محذوفٌ، بحسب المعهود في نظائره في القرآن الكريم، أي: لو شاء سبحانه إيمان مَنْ في الأرض من الثَّقلين، لآمن كُلُّهُمْ[4]؛ فلو شاء ربُّك - يا محمد ﷺ - إيمانَ أهلِ الأرض كلِّهم جميعًا؛ لآمنوا، دون أن يتخلَّف منهم أحدٌ، ولكنَّه سُبحانه لم يشأ ذلك؛ لأنَّه مُخالف للحكمةِ الَّتي عليها أساس التَّكوين والتَّشريع، والإثابة، والمعاقبة، فقد اقتضت حكمتُهُ سبحانه أن يخلقَ الكفرَ والإيمان، وأن يحذِّرَ من الكفر، ويَحُضَّ على الإيمان، ثُمَّ بعد ذلك من كفر؛ فعليه تقع عقوبة كفره، ومن آمن؛

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/293.
(2) المراغي، تفسير المراغي: 11/158.
(3) إسماعيل حقّي، روح البيان: 4/84.
(4) السَّمرقندي، تفسير السَّمرقندي: 2/134، والآلوسي، روح المعاني: 6/181.

فله ثواب إيمانه[1]، فحذْفُ مفعولِ المشيئةِ؛ لِوُجودِ ما يَقْتَضيه مِن وقوعِها شرطًا، وكونِ مَفعولِها مضمونَ الجزاءِ، وألّا يكونَ في تَعلُّقِها به غرابةٌ[2].

دلالةُ التَّعبير بالرُّبوبيَّة دون الألوهيَّة:

بيانُ تمام الرِّعاية والإحسان من الرَّبِّ سبحانه لأهل الإيمان

لفظ ﴿رَبُّكَ﴾ في قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ﴾، معناه المُحسِن إليك بإقبال من أقبلَ؛ لعلمِه الخير فيه وإدبار من أدبر لعدم قابليَّتِه للخير[3]. فذكر الرُّبوبيَّة هُنا لبيان تمام الرِّعاية والعناية والإحسان من الله لأهل الإيمان، وترْكِ الاختيار مع القدرة على الإجبار من لطف الرُّبوبيَّة، لا من قهر الألوهيَّة، وقد ذكر لفظ الرَّبِّ دائمًا مع تقرير الاختيار، ومنه قوله تعالى في سورة هود: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: 118 - 119].

دلالةُ تعليق الإيمان بالمشيئةِ:

تحقيقُ دورانِ إيمان جميع المكلَّفين على قطب المشيئة الإلهيَّة

صرَّح تعالى في قوله: ﴿لَّآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أنَّه لو شاء إيمانَ جميع أهل الأرض؛ لآمنوا كلُّهم جميعًا، وهو دليلٌ واضح على أنَّ كفْرَهم واقعٌ بمشيئته الكونيَّة القدريَّة، وبيَّن ذلك أيضًا في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾ [الأنعام: 107] الآية، وقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة: 13]، وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: 35] إلى غير ذلك من الآيات[4]. وفي هذا الفعل تحقيقٌ لدوران إيمان جميع المكلَّفين وجودًا وعَدَمًا على قطب مشيئته[5] ﷻ.

(1) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 7/136.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/177.
(3) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 9/209.
(4) الشِّنقيطيّ، أضواء البيان: 2/367.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 6/181.

سرُّ اصطفاء الاسم الموصول (مَنْ):

بيانُ أنَّ المُرادَ بخطاب الإيمان، هم عموم العقلاء

﴿مَن﴾ في قوله تعالى: ﴿مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ اسم موصول لجمع العُقلاء وهو الاسم الموصول الدَّال على العموم المشترك بين الإفراد والجمع والتَّذكير والتَّأنيث، فاصطفاء هذا الاسم؛ لأنَّ المخاطَبين بخطاب الإيمان والتَّكليف، هم العُقلاء من الإنس والجنِّ، وهم الموصوفون بالإيمان أو عدمه في الخطاب الشَّرعي، وقوله: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ﴾، "بأن يلهمهم الإيمان، ويوزِّع قلوبهم للتَّقوى، فقدرته صالحةٌ لذلك، ولكنَّه اقتضت حكمته أن كان بعضُهم مؤمنين، وبعضهم كافرين"[1].

دلالةُ لفظ ﴿كُلُّهُمۡ﴾:

تأكيدُ التَّنصيص على العموم المُستفاد من الاسم الموصول

معنى ﴿كُلُّهُمۡ﴾؛ في قوله تعالى: ﴿لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ﴾ أي: بحيث لا يَشِذُّ عنهم أحدٌ[2] وجيء بهذا التَّأكيد للتَّنصيص على العموم المُستفاد مِنْ (مَنْ) الموصولةِ، فإنَّها للعموم[3]، و"في الآيات تقريرٌ ربّانيٌّ بأنَّ الله تعالى لو شاء لآمن من في الأرض جميعًا، وسؤالٌ للنَّبي ﷺ، عمّا إذا كان هو مع ذلك يريد أن يرغم النّاس جميعًا على الإيمان"[4]، ولفظ ﴿كُلُّهُمۡ﴾، يستوعب البشريَّة قاطبةً، ولا أحد مهما عظم شأنه، وارتفع قدره، وعظمت قوَّته، يستطيع أن يتأبّى على مشيئةِ الله، قال تعالى: ﴿إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ [الشّعراء: 4].

دلالةُ ورود لفظي ﴿كُلُّهُمۡ﴾ و﴿جَمِيعًاۚ﴾ مُتجاوِرَيْنِ:

التَّأكيدُ بعد التَّأكيد لزيادة رفْعِ احتمال العموم

النَّصب في ﴿جَمِيعًاۚ﴾ على الحال، وهي حال مؤكِّدة[5]، جيء بها

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 374.
(2) القاسميّ، محاسن التَّأويل: 6/65.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/209 - 210.
(4) دروزة، التفسير الحديث: 3/496.
(5) ابن عطية، المحرَّر الوجيز: 3/145.

بعد ﴿كُلُّهُمْ﴾ للتَّأكيد كقوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِۖ﴾ [النّحل: 51] فنُصِبَ على التَّأكيد بعد التَّأكيد[1]، وقيل: أتى بها مع أنَّ كلًّا منهما يُفيد الإحاطة والشُّمول للدَّلالة على أنَّ وجود الإيمان منهم بصفة الاجتماع الَّذي لا يدلُّ عليه ﴿كُلُّهُمْ﴾[2]، ففي الإتيان بلفظ ﴿جَمِيعًا﴾ بعد ﴿كُلُّهُمْ﴾ قولان: أحدهما أنَّه زيادة تأكيد، ونصبه على الحال، وقيل: لمّا كان (كل) يقع تأكيدًا، ويَقَعُ اسمًا غير تأكيد؛ أتى معه بما لا يكون إلّا تأكيدًا، وهو ﴿جَمِيعًا﴾، فجمع بينهما، ليُعلم أنَّ معناهما واحدٌ، وأنَّه للتَّأكيد[3]؛ وقد سبق أنَّ التَّأكيد بلفظ ﴿كُلُّهُمْ﴾ للتَّنصيص على العموم المستفاد من (مَنْ) الموصولة، فإنَّها للعموم، فجيء بالتَّأكيد بلفظ (جميعًا) لزيادة رفع احتمال العموم العرفيِّ دون الحقيقيِّ، وهو من فصيح الكلام[4]، ومعنى ﴿جَمِيعًا﴾، أي: "مجتمعين على الإيمان لا يختلفون فيه، لكنَّه لا يشاؤه؛ لكونه مخالفًا للحِكمة التي عليها بُنِيَ أساسُ التَّكوين والتَّشريع، وفيه دِلالةٌ على أن مَن شاء اللّه تعالى إيمانَه يؤمن لا محالة"[5].

الموقع البيانيُّ لجملة الإنشاء: ﴿أَفَأَنتَ﴾:

السّياق مُواساة للنَّبيِّ الكريم، لمصابه في قومه المناوئين

الجملة ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ﴾ مُفرِّعةٌ على الَّتي قبلها؛ لأنَّه لمَّا تقرَّر أنَّ اللّه لم تتعلَّق مشيئتُه باتّفاق النَّاس على الإيمان باللّه؛ تفرَّع على ذلك إنكارُ ما هو كالمحاولة لِتحصيل إيمانهم جميعًا[6]، فيكون ورود قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ ...﴾، كالمقدِّمة الكليَّة، لقوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾، وفيه عزاءٌ للنَّبي الكريم ومُواساةٌ له عن مصابه في قومه الذين أبوا أن يستجيبوا له،

(1) عبد القاهر الجُرجانيّ، درج الدُّرر: 1/832.
(2) القنّوجيّ، فتح البيان: 3/281.
(3) مكّي القيسيّ، الهداية إلى بلوغ النِّهاية: 5/3330.
(4) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/145، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/292.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/177.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/293.

وأن يتقبَّلوا الخير الذي جاءهم به، فإنَّه لا إكراه في الدِّين، وذلك لأمرين: الأمر الأوَّل: أنَّ الدّين عقيدةٌ، والعقيدة إيمانٌ بالمُعتقد فيه، والإيمان بالشَّيء لا يكون حتّى يرضاه العقل، وتميل إليه النَّفس، ويطمئنَّ له القلب، وليس في شيء من هذا مكان للإكراه، بل إنَّ الإكراه هو الآفة الَّتي تحجب القلبَ عن الإيمان، وتغتال الإيمان إذا هو وجد طريقًا إلى القلب، والأمر الثَّاني: أنَّ القلوب التي هي مستودع الإيمان، بيد الله ﷻ، إن شاء ساق إليها الإيمانَ، وهيَّأها لاستقبالِه، ونفعها به، فأزهر فيها، وأثمر، وإن شاء صرفها عن الإيمان، وختم عليها، فلم تقبله، ولم تنتفع به[1].

دلالةُ الهمزة الاستفهاميَّةِ:

الاستفهامُ من أساليب التَّأديب لنَفي وقوع الإيمان بالإكراه

الهمزةُ في قوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ﴾ للاستفهام، وهو هُنا إنكاريٌّ، وهو بالنِّسبة لمقام النَّبي ﷺ تأديبيٌّ[2]، أي: أفأنت يا محمَّد تُلزِمُ النَّاس، وتلجئهم إلى الإيمان، ليس ذلك عليك ولا إليك، بل إلى الله وعليه، فالإيمان لا يتمُّ بالإكراه والإلجاء والقسر، وإنَّما يتمُّ بالطَّواعية والاختيار[3]، فالإنكارُ يرادُ به التقريرُ، ويُلمح فيه أيضًا معنى النَّفي[4].

دلالةُ المحذوف على معنى الإكراه والدّافع إليه:

بيانُ شدَّة حِرصِ النَّبيِّ على إيمان قومه، وحزنه على كفرهم

الهمزةُ الاستفهامية هُنا داخلةٌ على محذوفٍ، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، والتَّقدير: (أتحزن يا محمَّد ﷺ، على عدم إيمانهم، وتتأسَّف عليه، فأنت تُكرِهُ النَّاس، أي: تريد أن تجبرهم على الإيمان؟)[5] وكان رسول الله ﷺ لشدَّة حرصه ورغبتِه في

(1) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 6/1088.
(2) الهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 12/361.
(3) الثَّعالبي، الجواهر الحسان: 3/269، ووهبة الزُّحيليّ، التَّفسير المنير: 11/272.
(4) النَّسفيّ، مدارك التَّنزيل: 2/254.
(5) الصّاويّ، حاشية الصَّاويّ علي الجلالين: 2/120، والهرريّ، حدائق الرّوح: 12/361.

إيمانهم، كاد أن يُكرههم على الإيمان إشفاقًا عليهم، كقوله: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء: 3][1].

دلالة الفاء:

بيانُ تفرُّعِ الإنكار على ما ورد قبلُ، من ذكر عدم المشيئة

الفاء في قوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ﴾، للتَّفريع والمقصود تَفَرُّع الإنكار على ما ورد قبلُ، وقيل: إنَّ الهمزة في موضعها والعطف على مقدَّر ينسحب عليه الكلام، كأنَّه قيل: (أربُّك لا يشاء ذلك، فأنت تُكرههم؟)[2]، فيجوز أن تكون الفاءُ لترتيب الإنكار على عدم مشيئته تعالى، بناء على أنَّ الهمزة متأخِّرة في الاعتبار، وإنَّما قُدِّمت لاقتضائها الصَّدارة، كما هو رأي الجمهور وأيًّا ما كان، فالمشيئة على إطلاقها؛ إذ لا فائدة بل لا وجه لاعتبار عدم مشيئة الإلجاء خاصَّة في إنكار التَّرتيب عليه أو ترتيب الإنكار عليه[3].

فائدةُ تقديم الضمير ﴿أَفَأَنتَ﴾ على المسند الفعلِّي ﴿تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ﴾:

تقويةُ حكمِ الإنكار بالدَّلالة على أنَّ خلاف المشيئة مُستحيل

تقديم الاسم في الاستفهام على الفعل للإعلام، بأنَّ الفعل – وهو هُنا الإكراه – ممكن لكن من غير ذلك الاسم؛ فالله وحده هو القادر على تحويل الطِّباع، فإنَّ قُدرته قاهرةٌ لكلِّ شيء، ومشيئتُه نافذةٌ في كلِّ شيء، مع الدَّلالة على أنَّ وقوع خلاف المشيئة مستحيل، لا يمكن لغيره تعالى بإكراه ولا غيره، والمُراد تخفيف ما يلحق النَّبي ﷺ من التَّحسُّر للحرص على إيمانهم[4]، فتقديم الضَّمير على الفعل للدَّلالة على أنَّ خلاف المشيئة مُستحيلٌ، فلا يمكن تحصيله بالإكراه عليه فضلًا عن الحثِّ، والتَّحريض عليه[5]. ولأجل كون هذا الحرص الشَّديد، هو محلُّ التَّنزيل، ومصبُّ الإنكار، وقع تقديم الضمير

(1) الماتريديّ، تفسير الماتريديّ: 6/88.
(2) الآلوسي، روح المعانيّ: 6/181.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/177.
(4) الكشّاف: 2/372، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/210، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/108.
(5) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 3/124.

على المسند الفعليِّ، فالتَّقديم لتقويَةِ حكم الإنكار[1]، وليس مفيدًا للتَّخصيص؛ أي: القصر؛ لأنَّ المقامَ غير صالح لاعتبار القصر؛ إذ مجرَّدُ تنزيل النَّبيِّ ﷺ منزلة من يستطيع إكراه النَّاس على الإيمان، كافٍ في الإشارة إلى تشبيه حرصه على إيمانهم، بحرص من يستطيع إكراههم عليه[2].

دلالةُ الفعل المضارع:

بيانُ الحرص النَّبويِّ على هداية النّاس، وتكرارها وتجدُّدها

معنى ﴿تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ﴾: تُلجئهم إلى الإيمان وتضطرُّهم إليه[3]، فلكثرة حرصه ﷺ على هداية النّاس، وتكرار دعوته لهم وتجدُّدها منه، حينًا بعد حين، عبَّر عن لازم هذا الحرص بالفعل المضارع، وهذا تعريضٌ بالثَّناء على النَّبيِّ ﷺ، ومعذرة له على عدم استجابتهم إيّاه، ومن بلغ المجهود حُقَّ له العذر[4].

بلاغةُ الاستعارة:

تصويرُ حرص الرَّسول على إيمانهم بحرص من يرنو إلى إكراههم عليه

في قوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ﴾، استعارة تصريحيَّة تبعيَّة؛ وذلك بتشبيه حرصه ﷺ على إيمانهم، بحرص من يستطيع إكراههم عليه، فنُزِّل النَّبيُّ ﷺ، لحرصه على إيمان أهل مكَّةَ، وحثيث سعيه لذلك، بكلِّ وسيلة صالحة، منزِلةَ من يحاول إكراههم على الإيمان، حتّى ترتَّب على ذلك التَّنزيل إنكارُهُ عليه[5].

إيثار لفظ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ ودلالة التَّعبير به:

خطابُ البلاغ النَّبويِّ مكرَّسٌ لمن أمر بدعوتهم

في قوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ﴾ كان المتبادر (أفأنت تُكرِه من في الأرض) جريًا على اللَّفظ الأوَّل ﴿مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، لكنّه عَدَلَ عن ذلك وجاء بلفظ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ والناس هُنا هم العرب، أو أهل مكَّة

(1) البروسويّ، روح البيان: 4/84.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/293.
(3) عبد الرّزاق الرَّسعنيّ، رموز الكنوز: 3/107.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/293.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/293.

منهم، وذلك إيماءٌ إلى أنَّهم المقصود من سَوْق القَصَص الماضية، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾ [يونس: 71]، فالمُراد بالنّاس: من طُبِعَ عليهم، والذين عاش النَّبيُّ ﷺ بين ظهرانيهم، أو الجميع؛ مبالغةً[1].

العِلَّة في اختيار ﴿يَكُونُواْ﴾ بدلًا من (يُصْبِحُوا):

رعايةُ معنى إلهامهم إلى الإيمان مع إرشادهم إليه

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَكُونُواْ﴾، أي: كونًا جبليًّا[2]، بأن يلهمَهم الإيمانَ، ويوزِّع قلوبهم للتَّقوى، فقدرته صالحةٌ لذلك، ولكنَّه اقتضت حكمته أن كان بعضهم مؤمنين، وبعضهم كافرين[3]، فعبَّر النَّظم بلفظ ﴿يَكُونُواْ﴾ بدل (يُصْبِحُوا): مع أنَّ التَّحوُّل في الثَّانية أظهر من الأولى رعايةً لهذا المعنى.

سِرُّ التَّعبير بـ اسم الفاعل: ﴿مُؤْمِنِينَ﴾ بدلًا من: (حتّى يُؤْمِنُوا):

الرُّسوخ في الإيمان، هي الحال اللّائقة، بمن عرَف الحقَّ واتَّبعه

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾، أي: راسخين في الإيمان[4]، فجيء بالاسم دون الفعل للدَّلالة على الرُّسوخ في الإيمان، وأنَّه هو المعتبر والمنتظر، ممَّن دُعِيَ إلى الحقِّ، فعرَفه، فآمن به، وثبت عليه، "والمعنى: تلك هي مشيئتنا، لو أردنا إنفاذها؛ لنفَّذناها، ولكنَّنا لم نشأ ذلك، فهل أنت - يا محمد ﷺ - في وسعك أن تُكْرِهَ النّاس الَّذين لم يرد الله هدايتهم على الإيمان؟ لا، ليس ذلك في وسعك، ولا في وسع الخلق جميعًا، بل الَّذي في وسعك هو التَّبليغ لما أمرناك بتبليغه"[5].

دلالةُ حذف مُتَعَلَّق ﴿مُؤْمِنِينَ﴾:

بيانُ أنَّ ما جاء به النَّبي المبلِّغ، هو الإيمان الَّذي أمر الله به

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾، أي: لك، مُصدِّقين على ما

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/181، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/292.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/210.
(3) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 374.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/210.
(5) طنطاويّ، التّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 7/136.

جئتهم بهِ من عند ربِّك[1]؛ إذ ما جاء به النَّبي ﷺ، هو الإيمان الَّذي أرسل اللّه به رسله، وخاطب به عباده، ودلَّهم عليه، وأرشدهم إليه.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإكراه والإجبار:

الإكراه: خلاف الرِّضا والمحبَّة، ويقال في حمل الإنسان على ما يكرهه[2] قسْرًا وجبْرًا، فمعنى الإكراه لغةً يدور حول المشقَّة والشِّدَّة، وعدم الرِّضا والمحبَّة وعدم الاختيار، وحَمْل الآخرِ على ما يكرهه بالوعيد الشَّديد، والإلزام والإجبار على ما يكرههُ الإنسان طبعًا أو شرعًا[3]، والمقصود بالإكراه في الدّين إجبارُ الإنسان على اعتناق دين جبرًا عنه، بأيِّ نوع من أنواع الجبر والقهر، ويُعرَّف الإجبار لغةً بالقهر والإكراه، يقال: جَبَر الرَّجلَ على الأمر يَجْبُرُهُ جبرًا وجبورًا وأجبره: أكرهه[4]. فالإكراه في اللُّغة يساوق الإجبار، كما عرَّفه اللُّغويّون، إلَّا أنَّ بعض المحقِّقين جعله أعمَّ منه؛ إذ ذهب إلى أنَّ الإجبار هو حمْلُ الإنسان غيرَهُ على الفعل مع الإيعاد على تركه، في حين قد يصدق الإكراه بالحمل على الفعل من دون إيعادٍ على تركه، كما إذا طلب منه أبوه أو أمُّه أو زوجته فعلًا ولم يكن مجبرًا عليه، إلَّا أنَّه يريد إرضاءَهم وعدم مخالفتهم. وفي الإجبار معنى الاستعلاء أيضًا[5]. ولعموم الإكراه، وخلوِّه من معنى الاستعلاء اختيرَ في الآية ليناسب خطابَ النَّبيِّ ﷺ.

الإجبارُ حملُ الإنسانِ غيرَه على الفعل مع الإيعاد على تركهِ، والإكراه أعمُّ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/213.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (كره).
(3) الجرجانيّ، التَّعريفات، ص: 50.
(4) ابن منظور، لسان العرب، والجوهريّ، الصِّحاح: (جبر).
(5) التَّهانويّ، كشَّاف اصطلاحات الفنون: 1/549.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد العشرون، سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد العشرون، سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40 [إشراف
مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 20 ، 812 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-17-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 20 : المجلد العشرون، سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-17-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6073958 بتاريخ 2024/02/06م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»